الا اننا كنا قد تعبنا من مشاهدة مثل تلك الاشياء ، ولا قبل لنا لمثلها · نظرة واحدة · وخطوة ـ خطوتان تكفيان للباحة ، للبيت ، للبئر ، للماضي وللحاضر وصمتهما المصغي · ولو أن ثمة شاعوبا مهملا او طورية صالحة ، او مفتاح مواسير مهماوجيدا ـ كانت لا تزال تغري برفعها ، وتقييمها باليد ، تقييم ابتياع واقتناء ، وتقييم اشياء تجمل ان تكون في مكانها ، بل وتثير الرغبة احيانا ، وبالمناسبة ، في اخذ موتور البئر والانابيب ، خمس انشات ، والقرميد من اعلى ، والاجر من اسفل ، والالواح الخشبية (فدائما لها ثمة استعمال في فنائنا) ـ ونقلها الى البيت ، وثمة متعة مدغدغة جدا في اقتناص المتعة السهلة ، والاثراء دفعة واحدة ، بان ترفع مشاعا وتجعله ملكا لك ، ان تغتصب لنفسك ، وسرعان ما راحت المشاريع ترتسم ، منها وبها ، وقد اصبح واضحا ما الذي يمكن فعله في كل ذلك وكيف ـ لو لم نكن حتى الآن في كثير من القرى ، وجمعنا ورمينا وحرقنا ودمرنا الى ان عافت نفوسنا ذلك ـ فنأخذ الطورية حالا او الشاعوب المناسب المتروك ، ونرميه على الارض بازدراء ، او نصوبه على ما امكن من الاشياء التي سرعان ما كانت تتناثر قطعا مهشمة ، فنتحرر من الاهانة في عدم استعماله ـ بدمار ملموس ، مرة واحدة والى الابد ، فينعدم صمته وينقطع ·

وفي المقابل ، فاننا عندما ابتعدنا ووصلنا الى الكروم المحاذية للقرية ، مثلت لنا الشواهد في الباحات والبيوت التي كانوا قد هجروها قبل وقت قصير · فالفراش كان لا يزال ممدودا ، والنار بين الاثافي لا تزال تتداخن ، والدجاج ينبش النفايا برهة وكأن شيئا لم يكن ، ثم يفر زاعقا كالذبيح · كلاب تستروح مرتابة ، تقترب ولا تقترب ، تنبح ولا تنبح ، والادوات التي كانت في الحديقة لا تزال بكامل انهماك حياتها · والصمت لم يأت بعد الا كالذهول والدهشة ، وكأن الامر لم يحسم بعد ، وقد يعود الى سابق عهده ·في احدى الباحات كان ثمة حمار يقف منتصبا ومن فوقه اكداس ، تنقلب وتسقط على الارض ، فرش والحفة ملونة ، كان طبل الرعب قد دق اثناء تحميلها الخاطف « ها هم يغشونك ! » وصرخ : الى الجحيم كل شيء ، اهربوا ! وفي الفناء المجاور ، حيث كان ثمة حاكورة خضروات في طرفه ، اشتال بطاطس مدللة متللة جميلة ، كانت لدانة تربتها واخضرارها الناصع تدعوانك وتدعوانك لان تعود الى البيت بسرعة وتعكف على زراعة البطاطس الجميلة ـ في ذلك الفناء المجاور كان ثمة خروفان يلتصقان ذاهلين في زاوية السور ، حائرين تماما (شاهدتهما بعد ذلك يثغيان فوق سيارتنا الشحن ، وجرة المياه الضخمة كانت تنكفيء على العتبة ، تنضح بقايا مياهها مستسلمة في بركة نصفها داخل الغرفة والنصف الآخر خارجها · وبعد هذا الفناء مباشرة كانت ثمة قطعة ارض محروثة حديثا ثم تليها ضواحي القرية ·

وما ان خرجنا الى الطريق ، حتى رأينا جملا محملا بالادوات المنزلية والفراش قبالتنا ، ورسنه مقطور الى برذعة حمار يسير امامه ، محمل هو الآخر بالادوات المنزلية ، وغرابيل كبيرة واكداس ثياب ، كان يقف ويقضم من الاعشاب التي كانت تحت سياج السنط بمتعة فائقة ، وهو يغوص في خصبها بازدراء كامل لشريكه في الحبل ، الذي كان يرفع رأسه الصغير الى قمة عنقه برعب ، ثم ينتحي به الى الخلف ما استطاع ، كما لو كان يتفادى صداما ، ثم يقذف من داخله غرغرةحقد، ورغاء فزع ، وهو يندف رائحة عرق جمال دهنية كريهة · تحفز لمشهد الجيب حالا للتحرك والالتفاف والهرب ، لولا حبل الرسن المشدود الى برذعة الحمار ، فراح يشده ويهزه بقوة متزايدة ، الا ان الحمار لم يعر ذلك الاضطراب الابلي انتباها ، ولم يلتفت الى شيء ، سوى تغذية نفسه بشهية · قفز شاؤولنا حالا